نبوغ شبابنا
بين عاملى الكفاح والتشجيع
للأستاذ صلاح الدين الشريف

أحسبك تذهب معى ياصديقى ، الى أن شبابنا المصرى موهوب بطبعه ، وأن الكثيرين من أفراده أظهروا نبوغهم الكامل عندما زاولوا أعمالا كبيرة كنا نحسبها وقفا على غيرنا من قبل ... ولكنهم أتقنوها إتقان من طال عليهم بها العهد ، فشقوا طريقهم الى النجاح ، بعد أن ملأت قلوبهم الثقة ، وآمنوا بمستقبلهم ، وجعلوا النجاح لهم ديدنا وعادة .

ولكنى أرى الى جانب هذا الفريق الناجح ، فريقا آخر فاشلا ، يلتوى به القصد ، من رغبة الى رغبة ، ويتذبذب بين عمل وعمل . وما أسرع ما تخونه الثقة بالنفس ، حتى لتجمد ملكاته وتنطفئ جذوة حماسه ، ولما يبدأ المرحلة الأولى فى حياته ، فهل تراك محدثى عن سر هذا التفاوت بين الفريقين ، وتكشف لى عن سبب هذا الازدواج فى وضع الصورة ، ومادتها على ما أحسب واحدة ألوانها ، لا تكاد فى انسجامها وتوازنها ؟ .

الواقع ، أنى أذهب معك ، الى أن شبابنا لا يعوزه النبوغ ، ولا تنقص ملكاته الكفاية ، وأنه من أجل هذا ، مستطيع أن يشق لنفسه ، طريقا سويا الى النجاح ... ولكن ألا تذهب معى الى أن النجاح ، حقيقة مركبة ، لها عناصرها ... ، أو قل ، أنه هدف موموق ، قد يقرب ويدنو ، وقد يبعد ويشط ، على حسب السبل الموصلة اليه ، ومدى حظها من السهولة أو الصعوبة ؟ ...

اجل ، ان السبل موجودة . واختيار إحداها ، أو التفضيل بينها ... قد لا يبدو صعبا البتة . ولا سيما ، إذا درس الشاب ، حقيقة رغبته ، وقاس حدود طاقته ... ولكن مجرد تفضيل السبيل الذى يقع عليه اختياره ، لا يكفيه ليواصل خلاله السير ، ويعد على طوله الخطو ... إذ ثمة أيضا ذلك الاكسير السحرى ، الذى ينسيه متاعبه ، ويذيقه حلاوة كل خطوة يخطوها ، مقتربا من هدفه . وأعنى به " روح التشجيع " ، الذى من حقه أن يلقاه فى بيئته . فهو محك الكفاية ، ومقياس التجربة . وهو الذى يسوس أعصابه ويكيفها وفق ما يريده صاحبها ... وهو بعد ، الذى يسهل عليه مشاق العمل ، ويحقق له نجاحه ، ويدنيه بسهولة من مأموله ... ولكننا نتلفت ، لنتحسس اثارة من هذه الروح الطيبة ، روح التشجيع ، فلا نفوز بطائل .

ولكم يحز فى نفوسنا ، أن نرى جمهرة الشباب عندنا ، محرومة منها . فشبابنا ، منذ أن ينشأ فى بيئة البيت ، الى أن يشب فى محيط المدرسة ، الى أن تدب به الرجل ، بين وعور الحياة

فى المجتمع ، لا يلق أمامه التشجيع ولا يذوق له طعما ! ... فهلا اعترفنا بهذا الوضع الشائه ، وعكفنا على فلسفة التشجيع هذه ندرسها ، لنحققها ، ونذيق أطفالنا وشبابنا حلاوتها وعذوبتها ! .

نعم . لا أستطيع أن أنكر هذا الذى انتهيت اليه . فنحن شباب هذا الجيل ، قد ذقناه واكتوينا به . ولكن ما لا أستطيع أن أقنع به ، هو أنك عزوت الى هذا العامل وحده ، كل السبب فيما يلقاه بعض شبابنا ، ولا سيما فى محيط العمل الحر من فشل وخيبة .

انى يا صديقى ، إذا فهمت أن عامل التشجيع ، عنصر لا بد منه ، فى نجاح شباب الأعمال الحكومية مثلا ، وهى التى يتعدد فيها الرؤساء ، ويكثر المشرفون على العمل ... أو قل ما يجرى مجرى هذه الأعمال فى محيط العمل الحر ، كالشركات الكبرى ، والبيوت المالية المنظمة ، فانى مع هذا لا أرى وجها ، لفهم هذا الأمر ، فى غير هذا المجال من مجالات العمل الفسيحة الأخرى ، وهى التى يعتمد المرء فيها على نفسه ، ويكون بفكره وجهده ورأسماله ، برنامج العمل ، ويحدد أهدافه ثم يمضى فى الحياة وحده ، لتحقيقه ، واجتناء ثمراته .

فيقيني إذن . أن مثل هذا الشباب ، يعوزه أن يفهم معنى الكفاح ، وأن يشرب به روحه ، لأنه متى فهمه وأدركه ، شجع نفسه بنفسه ، وامتلأ ثقة ، بأنه لا بد فائز بأغراضه كلها أو بكثير منها على الأقل .

هذا الكفاح ، يقوم فى الواقع على مبدأين :

أولها : أنه يجب أن نعتاد النجاح عادة ، فنبدأ مثلا بالأعمال السهلة ، المتواضعة ، ولا نأنف منها أو نستنكرها . . فلقد ولى زمان هذه النظرة البلهاء ، وانطوت صفحتها . . ثم نتدرج منها إلى الأعمال الأكثر صعوبة ، متى نجحنا فى الأولى . وهكذا ، تظل الثقة فى نفوسنا تشجعنا وتؤنسنا بوحيها .

وثانى المبدأين : هو ألا نعمل عملا نكرهه . لأننا عندئذ ، نقيم فى أنفسنا صراعا بين الهوى والواجب . . هذا الصراع يستنفد بالطبع مقدارا كبيرا من قوة أعصابنا ، حتى أن جهد ساعة منه يقوم مقام الجهد الكامل . فتكون النتيجة أن نعيا بالعمل البسيط ، ونصبح مهمومين مجهودين ، حتى ولو كنا فى فراغنا لا نجد ولا نعمل .

ولكن من ذا الذى ينكر أن الكفاح لا بد منه ! ؟ . إنما ذهبت يا صديقى فيما قلته لك إلى أن هناك خطوة رئيسية قبل مرحلة الكفاح هذه . أو أن هناك دورا تمهيديا له . وإذا شئت أن أصدقك الرأى قلت أن مبدئى هذا ، ليس خطوة أولى ، أو دورا تمهيديا فحسب ، بل إنه بمثابة العنوان الذى يوجه المرء فى كفاحه .

كيف بالله ، تخلق الرغبة أو الهوى ، وأنت محروم من الشعور بلذة ما تعمل ، معصوب العين عن المصير الذى تهدف بعملك نحوه .

إن مثل هذا الشاب الذى حرم الرغبة ، وسلب الغاية ، لكالآلة تساق سوقا دون أن تدرك لعملها وردا ولا صدرا ! . وإلا فكيف لعمرى تحفز الرغبة بغير التشجيع ! . أو كيف تعشق الغاية بغير هذا " الاكسير " ! ؟ .

لا زلت أؤكد أن عنصر الكفاح هو رأس مال النجاح فى هذه الحياة التى تتطاحن فيها الملكات ، وتتعارك بين أمواجها الكفايات . والكفاح بطبعه يتقاضى الشاب أن يؤمن بنفسه أولا حتى ولو عدم تشجيع الغير وأضحى منكور الحق فى نصيبه العادل من هذه الحياة .

يجب على الشاب ، فى أى ميدان من ميادين العمل نزل إليه ، أن يتعلم جادا استقلال النفس حتى ولو لم يلقنه فى بيته ولا معهده ، وأن يعتاد الاعتماد على ذاته وحدها ، حتى ولو وجد الامر فى بادئه شاقا وعسيرا .

فاذا قدر له أن يختار عملا ما ، ولو كان بعيدا عما درسه فى المدرسة أو الجامعة ، فأول خطوة يخطوها ، هى أن يقف تماما على مدى رغبته ومقدار ميله إليه ، ثم يدون غايته ويعين السبل المعقولة التى توصل إليها ، ويدأب على شرحها لنفسه فى ثقة العارف المطمئن ، فان هذا أقمن أن يعينه على توضيح أفكاره وحث خطواته إلى ما يرجو ويطلب .

وبالطبع ، لا أنكر أن التشجيع حيثما وجد يعد حافزا من حوافز النجاح فى كثير من الأعمال حتى تقارب حد الكمال ، فيكسب العمل ، ويكسب الشباب ، ويكسب المجتمع بمكسب الاثنين .

إذن اتفقنا ، وأحسب ألا وجه للتناقض فيما ذهب كلانا اليه ، فالتشجيع والكفاح عنصران أساسيان لنجاح الشباب فى الحياة . وآخر ما يمكن أن أقوله فى النجاح " هو أنك إذا رغبت فى شىء تمام الرغبة ، وشجعت عليه التشجيع كله ، وكافحت من أجله كفاح الرجولة المؤمنة بنفسها ، لم يعد هذا الشىء ، وإن بدا لأول وهلة معجزا ، مستحيلا من المستحيلات ، فانك لا بد بهذا كله محقق رغبتك مؤكد كفايتك " .

هذه نصيحة طيبة ، ونظرة الى أمور الحياة صائبة . وإذا كان لى أن أضيف شيئا إلى ما قلت ، فهو نصيحة أخرى ، تجدى هذا الشباب المنهوك القوى ، الممتقع الوجوه ، إذا حرص على وضعها نصب عينيه . هذه النصيحة هى أن لكل شاب طاقة ، لا يجمل به أن يعدوها ، وإلا أجهد جسمه وأتلف أعصابه وأثبت به الطريق دون غايته .

نعم إن فى أعصابنا قوى مذخرة . ولكن حذار حذار من المساس بها ، إلا فى الأزمات الشديدة التى تتقاضانا جهدا استثنائيا فلنمسك على تنبيهها وارهاقها ، حتى نجد منها بعد ذلك ذخيرة تعيننا على العمل اليومى وعلى الأمل المتجدد ، وعلى توسيع نطاق الأعمال عند التوفيق والنجاح . ويدخل فى هذا أيضا حفظ الجسم من كل ما يفت فيه من عوامل الرذائل المختلفة التى كثيرا ما يرنو اليها الشباب ، متفتح الجوارح ، ثم يعلم بعد أن تضنيه نهكة الجسم ، أنه فرط فى شىء ان يعود وبدد كنزا لا يرجع .

صلاح الدين الشريف